«وصف الإسكندرية» سبق «وصف مصر»

سر «البلجيكى» الذى تفوق على علماء الحملة الفرنسية

● الثغر البسام الساحر.. الذى يسبى العقول ويأسر القلوب له حكاية جديرة دوماً بأن تروى، ولرونقه العجيب الذى لا يتطرق إليه الذبول أبداً، ولا يخفت بريقه يوماً، أسرار مذهلة تبدو رحلة استكشافها أروع المتع الذهنية، أما موقعه الفريد المحير فقصة شيقة تستحق - فى كل حين - أن تبسطها الألسنة، وتخطها الأقلام لمختلف الأجيال بشتى تفاصيلها المثيرة من البدء إلى المنتهى، فها هنا عند ذاك الثغر العجيب تواعدت الإنسانية على أن تضع أثقالها، وتلتقط أنفاسها، وتودع كنوزها، وقد استقر رأيها على أن تسند - ها هنا - ظهرها، وتجمع شتاتها، وتعقد لقاء عمرها، فى رحابة الثغر المبتسم دوماً، واتساع آفاقه واستواء ساحاته، وها هنا استلقت الدنيا بأسرها، ووضعت حملها على رمال ذلك الثغر الذى انتسب إلى «الإسكندر».. فاتح العالم، مع أنه عرف التحضر قبل ميلاده بأزمان، ففى «الإسكندرية».. أعرق المدن الحية تواعدت «البشرية» على اللقاء، ها هنا عند المرافئ الدافئة المطمئنة، والملاذات الحنونة الآمنة، فى ثغر يبتسم لحشود القادمين من الباحثين عن مأوى، أو المشتاقين إلى دفء السكنى، أو الظامئين الى المعرفة، المتطلعين إلى قطرة علم تروى الأرواح، أو لمحة ضوء تقر بها الضمائر، ووراء ذاك الثغر عالم مدهش فسيح، يستند إلى رصيد رحلة ممتدة فى بواكير الأزمان وفجر العصور ، مما أضفى على الموقع والمكان جاذبية ملهمة عصية على التكرار، يعمقها عطر أخاذ تقطره «تذكارات» الأحداث الجسام والوقائع المصيرية، والخطوات الفارقة التى شهدها مسرحه، ويعجز المحصون عن حصر تلك الأحداث، وقصاراهم الإشارة إلى بعضها، أو التنويه بقليل منها.

مسرح الأحداث المصيرية

فها هنا ارتفعت أركان واحدة من أكبر مكتبات الدنيا، وأحد أضخم المعاهد العلمية فى العالم القديم حيث شيد البطالمة مكتبة الإسكندرية فى ظهورها الأول، وقد توافد عليها الفلاسفة والمفكرون واللاهوتيون من شتى بقاع الأرض، لينهلوا من كنوزها، ويتعلموا من أساتذتها، ويدرسوا أسفارها الحاضنة لخلاصة المعارف، وها هنا أنجز الأحبار من جلة العلماء أكمل ترجمة للعهد القديم من لغته الاصلية إلى الإغريقية، فيما يعرف بالترجمة «السبعينية»، وعلى ذلك المسرح العريق تبلورت ملامح (الأفلاطونية الجديدة).. أحد أبرز التيارات الفلسفية التى عرفتها البشرية على مدى تاريخها، وفوق نفس الأرض أسس «القديس مرقس البشير» كرسى بشارته الذى تطور إلى إنشاء إحدى أعرق كنائس الشرق، وتشكلت ملامح مذهب يعد من أبرز كيانات «المسيحية» فى عالم اليوم، وها هنا - أيضاً - استقر حشد من أعلام الحديث النبوى الشريف، الذين قصدهم الناهلون من كل صوب، لينهلوا من علمهم الغزير المتدفق كالبحر المحيط بهم وبثغرهم، وعلى أرض ذلك الثغر الخلاب نظم أمير المادحين بردته الشهيرة فى عشق الذات الانسانية الكاملة.. سيد الأنبياء والمرسلين «محمد» «صلى الله عليه وسلم»، حيث عاش الإمام «البوصيرى» وعلم ونظم قصيدتيه الفذتين فى المديح النبوى، وتتوالى الأحداث الفارقة على مسرح الإسكندرية.. العروس التى لا تشيب ولا تعرف الشيخوخة، على الرغم من صروف الدهور، وأعاصير العصور، لذا لم يكن غريباً أبداً أن يتحول «الثغر» إلى ملجأ للعلماء والباحثين، ومقصد للرحالة والمغامرين، وملاذ لطلاب العلم فى كل حين.

ومن هؤلاء الرحالة الذين قدموا الاستكشاف أسرار المدينة العريقة باحث مجهول من جنوب «بلجيكا» كلفه ملك فرنسا عام ١٧٤٠ بدراسة الشرق وتحسس طرقه تمهيداً لغزوه وشن حملات توسعية على بلدانه، ويدعى ذلك الرحالة «البلجيكى» المجهول : «برتشامب»، وعلى الرغم من أن الغرض لم يكن نبيلاً إذ جاء للتمهيد للغزو الذى حدث بعد ذلك بنحو ٥٨ عاماً على متن حملة «نابليون بونابرت» على مصر والشام - إلا أن حصاد رحلة «برتشامب» بدا رائعاً، تمثل فى مخطوط نادر تركه المغامر البلجيكى للأجيال وضمنه حشداً من اللوحات والمناظر الوصفية للمدن التى شملتها رحلته الى الشرق، ومنها ثغر مصر البسام الذى أورد عنها المخطوط النادر تفاصيل بالغة الدقة عن ملامحها العمرانية، وسماتها المعمارية، وآثارها الباقية المنتمية إلى عصور شتى كمسلة «كليوباترا»، وقلعة «قايتباى»، و«مسجد العطارين»، و«المدينة العربية»، وكما يؤكد المفكر الكبير د. مصطفى الفقى مدير مكتبة الاسكندرية فى تصديره لكتاب «وصف الإسكندرية» الذى أصدرته المكتبة مؤخراً «تكمن أهمية ذلك المخطوط بتفرده عن غيره من مخطوطات الرحالة المعاصرين أو المؤرخين العرب والأوروبيين، بتقديم المعلومة التاريخية فى شكل مصور، وقالب تاريخى مشاهد، كما لو كان المتصفح يعيش بين جنبات هذه الحقبة التاريخية المفقودة من سجلات التاريخ المصرى المعاصر، والتى نقلت - بدقة بالغة - التفاصيل الدقيقة للعمران فى المدينة فى مطلع العصور الحديثة، وقبل مجىء الحملة الفرنسية إلى مصر بفترة زمنية ليست بالقصيرة، سابقاً بذلك ما رسمه علماء الحملة الفرنسية من لوحات فى السفر الأكبر والأكثر شهرة «وصف مصر»، بل ومتفوقاً على رسامين عظام أمثال: «فيفان دينون» ، و «دو ترتر»، و «فاى»، و «بلزاك».

■ غلاف الكتاب

المخطوط النادر لأول مرة

والكتاب الصادر مؤخراً عن مكتبة الإسكندرية فى إطار سلسلة «ذاكرة مصر المعاصرة»التى يشرف عليها د. خالد عزب ينشر المخطوط لأول مرة بصورة علمية دقيقة اضطلع بتقديمها الباحث د.حسام عبد الباسط الذى مهد للمخطوط بدراسة مستقصية وافية بينت أهمية مشروع الرحالة «البلجيكى» المجهول، ويعد مخطوط، وصف الإسكندرية رائداً لعلماء الحملة الفرنسية فى تجربة وصفهم لكل جوانب الحياة فى المدن المصرية، إلى أن تقرر إدارة المشروعات الخاصة بالمكتبة إصداره فى كتاب أعده الباحث حسام عبد الباسط، وإذا كان هذا المخطوط النادر الذى رأى النور مؤخراً قد سبق الموسوعة الشهيرة «وصف مصر»، فإن إعادة اكتشافه وإتاحته لقراء العربية لما يحسب لإدارة مكتبة الإسكندرية. وللعاملين فى قطاع المشروعات الخاصة، وبعد.. فقد اطلعنا عبر هذا الكتاب على بعض بريق الثغر البسام وقليل من أسراره، فما بالنا بخفايا وخبايا سائر الأعضاء فى جسد وطن عملاق بحجم مصر؟!

■ د. مصطفى الفقى

■ عمرو الديب